قضايا و اراء

16 من ذى الحجة 1423 هـ 17 فبراير 2003 السنة 126-العدد 42441
الأثنين

من أسرار القرآن
الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية
(83) الله خالق كل شيء وهو علي كل شيء وكيل*

بقلم الدكتور: زغـلول النجـار

هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الخمس الأخير من سورة الزمر, وهي سورة مكية, وآياتها خمس وسبعون بعد البسملة, وقد سميت بهذا الاسم للإشارة فيها إلي سوق المجرمين من الكفار والمشركين في يوم القيامة إلي جهنم زمرا, وإلي سوق المتقين من المؤمنين الموحدين إلي الجنة زمرا. ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة وإن جاءت بها بعض اللمحات عن طبيعة النفس الانسانية, وعن مصائر المؤمنين والكافرين في الآخرة, وعما أصاب المكذبين من الأمم السابقة, وضربت السورة الكريمة عددا من الأمثال واحتوت علي العديد من الآيات الكونية الدالة علي طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق وفي تحقيق البعث.

أولا: ركائز العقيدة:

من ركائز العقيدة التي أوردتها سورة الزمر مايمكن تلخيصه في النقاط التالية:

(1) أن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز الحكيم علي خاتم الأنبياء والمرسلين(صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين), أنزله ربنا(تبارك وتعالي) بالحق ـ قرآنا عربيا غير ذي عوج ـ يطالبه(صلي الله عليه وسلم) كما يطالب الناس جميعا بالإيمان به, وبعبادة الله(تعالي) وحده بإخلاص وتجرد تامين, بغير شريك, ولاشبيه ولامنازع, ولازوجة, ولا ولد لأن الله(تعالي) منزه عن ذلك كله ومنزه عن كل وصف آخر لايليق بجلاله, ولذلك فهو(سبحانه وتعالي) لايقبل من عباده إلا التوحيد الخالص لذاته العلية.

(2) إن الذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دون الله, بدعوي أنهم يقربونهم إلي الله زلفي, هم كاذبون في ادعائهم, وافترائهم علي الله, وسوف يحكم الله(تعالي) فيهم يوم القيامة, وهو(سبحانه) لايهدي من هو كاذب كفار, لأنه لايوجد من هو أظلم لنفسه ممن كذب علي الله, وكذب بالحق إذ جاءه.

(3) علي الذين ادعوا لله ولدا بغير علم ولا هدي ولا سلطان مبين أن يعلموا أن الله(تعالي) غني عن الصاحبة والولد, وأنه(تعالي) لو أراد أن يتخذ ولدا

لاصطفي مما يخلق مايشاء لأنه(سبحانه) هو الله الواحد القهار.
(4) إن الله(تعالي) لايرضي لعباده الكفر, ولكنهم إن كفروا فالله غني عنهم, وإن آمنوا وشكروا فالله يرضي عن ذلك منهم, ولاتزر وازرة وزر أخري, والخلق جميعهم راجعون إلي الله فينبئهم بما كانوا يعملون, وهو عليم بذات الصدور.

(5) إن الذين يشركون بالله قد يتمتعون قليلا في الدنيا, ثم هم في الآخرة من أصحاب النار.
(6) من شرح الله صدره للإسلام فهو علي نور من ربه, وأما الكفار والمشركون من أصحاب القلوب القاسية فهم في ضلال مبين, والذي يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه يقف في عبادة الله قانتا آناء الليل ساجدا وقائما, وغيره لاه في الدنيا حتي يفاجئه الموت,.. قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون, إنما يتذكر أولوا الألباب*(الزمر:9)

(7) إن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة, وإن تعرضوا لشيء من الابتلاء والإيذاء فعليهم أن يهاجروا فأرض الله واسعة, وعليهم أن يصبروا لأن الصابرين يوفون أجورهم بغير حساب.
(8) من اهتدي فإنما يهتدي لنفسه, ومن ضل فإنما يضل عليها, ومن يهد الله فما له من مضل, ومن يضلل فما له من هاد, والرسول الكريم ما عليه إلا البلاغ, فهو(صلي الله عليه وسلم) ليس علي الناس بوكيل, والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون.

(9) أن رسول الله(صلي الله عليه وسلم) ـ ومن بعده كل المسلمين, بل كل الناس ـ مأمورون بعبادة الله(تعالي) مخلصين له الدين وأن يكونوا لله(تعالي) من الشاكرين.
(10) الموت حق علي العباد, وكذلك البعث والنشور.

(11) أن الرزق من الله, وهو(سبحانه وتعالي) الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.
(12) أن الله(تعالي) هو الغفور الرحيم الذي يغفر الذنوب جميعا.

(13) أن كل بني آدم خطاءون, وخير الخطائين التوابون, ومن هنا كانت المسارعة في التوبة إلي الله والإنابة إليه من أصول الدين.
(14) أن للآخرة نفختان: نفخة الصعق والتي تنفخ في الصور فيصعق بها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله, ونفخة البعث التي إذا نفخت في الصور فإذا هم قيام ينظرون.

ثانيا: وصف مصائر كل من المؤمنين والكافرين:

في المقابلة بين ذل الأشقياء المعذبين من أهل النار الذين كفروا بالله أو أشركوا به, وبين تكريم السعداء المكرمين من أهل الجنة الذين آمنوا بالله واتقوه حق تقاته يقول ربنا(تبارك وتعالي):
قل الله أعبد مخلصا له ديني* فاعبدوا ماشئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين* لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون* والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلي الله لهم البشري فبشر عباد* الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله

وأولئك هم أولوا الألباب* أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار* لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لايخلف الله الميعاد*(الزمر:14 ـ20)
ـ ويقول(عز من قائل):
أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون*
(الزمر:24)
ـ وقوله(سبحانه وتعالي):
فمن أظلم ممن كذب علي الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوي للكافرين* والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون* لهم مايشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين* ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون*(الزمر:32 ـ35)

ثالثا: استعراض جانب من مصائر الأمم السابقة:

يقول ربنا(تبارك وتعالي):
كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون* فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون* ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون*(الزمر:25 ـ27)

رابعا: ضرب الأمثال

في سورة الزمر ضرب الله(سبحانه وتعالي) المثل علي الشرك بالله والتوحيد لذاته العليا ـ ولله المثل الأعلي ـ بعبد مملوك لعدد من الشركاء المتشاجرين المتنازعين, وعبد مملوك لرجل واحد لا يشاركه فيه أحد, ولاينازعه عليه أحد هل يستويان مثلا أي حالا وصفة فيقول(عز من قائل):
ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجالا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل اكثرهم لايعلمون*(الزمر:29)

خامسا: الآيات الكونية

جاء في سورة الزمر عدد غير قليل من الآيات الكونية الشاهدة لله(تعالي) بطلاقة القدرة في خلق الكون, وبالقدرة علي إفنائه, وبالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه(بغير شريك, ولاشبيه, ولا منازع, ولازوجة, ولا ولد), ومن هذه الآيات مايلي:
(1) خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل علي النهار ويكور النهار علي الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي ألا هو العزيز الغفار*(الزمر:5)

(2) خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله الا هو فأني تصرفون*(الزمر:6)
3 ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكري لأولي الألباب*(الزمر:21)

4 ـ إنك ميت وإنهم ميتون*(الزمر:30)
5 ـ الله يتوفي الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضي عليها الموت ويرسل الأخري إلي أجل مسمي إن في ذلك لآيات لقوم

يتفكرون*(الزمر:42)

6 ـ قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ماكانوا فيه يختلفون*(الزمر46)
7 ـ الله خالق كل شئ وهو علي كل شئ وكيل*(الزمر:62)

8 ـ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالي عما يشركون*(الزمر:67)
9 ـ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لايظلمون*(الزمر:69)
وكل آية من هذه الآيات تحتاج الي معالجة خاصة في عرض جوانب الاعجاز العلمي التي جاءت بها, ولما كان المقام لايتسع لعرض هذه الآيات التسع كلها دفعة واحدة فسوف أقصر حديثي هنا علي الآية السابعة فقط في القائمة السابقة. وقبل الدخول إلي ذلك أري لزاما علي أن أعرض لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

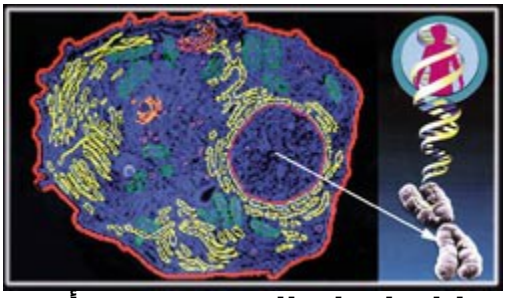

علي الرغم من ضخامة دلالتها, فإن المفسرين قد أوجزوا في شرح هذه الآية الكريمة ايجازا كبيرا.
ففي شرح قوله(تعالي): الله خالق كل شئ وهو علي كل شئ وكيل(الزمر: 62)

*** ذكر ابن كثير(رحمه الله) مانصه: أنه خالق الأشياء كلها, وربها, ومليكها, والمتصرف فيها, وكل تحت تدبيره, وقهره, وكلاءته...**
*** وجاء في تفسير الجلالين(رحم الله كاتبيه) مانصه:(الله خالق كل شئ وهو علي كل شئ وكيل) أي يتصرف فيه كيف يشاء**

*** وذكر صاحب الظلال(رحمه الله رحمة واسعة) مانصه: هذا القطاع الأخير في السورة يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذي خلق كل شئ, المالك المتصرف في كل شئ, فتبدد دعوة المشركين للنبي(صلي الله عليه وسلم) إلي مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل ان يشاركوه عبادة إلهه!! تبدو هذه الدعوة مستغربة, والله هو خالق كل شئ, وهو المتصرف في ملكوت السماوات والأرض بلا شريك, فأني يعبد معه غيره, وله وحده مقاليد السماوات والأرض؟!**
*** وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم(جزي الله كاتبيه خيرا) مانصه: الله خالق كل شئ ـ وهو وحده ـ علي كل شئ وكيل, يتولي امره بمقتضي حكمته.**
*** وجاء في صفوة التفاسير(جزي الله كاتبها خيرا) مانصه:(الله خالق كل**

شئ) أي الله جل وعلا خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات, والمتصرف فيها كيف يشاء, لاإله غيره, ولا رب سواه(وهو علي كل شئ وكيل) أي: هو القائم علي تدبير كل شئ.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تنص هذه الآية الكريمة علي أن كل مافي الوجود بوجهيه من عالم الغيب وعالم الشهادة هو من خلق الله الذي خلقه بعلمه وحكمته وقدرته, ويرعاه برعايته و رحمته التي لو تخلت عن الوجود طرفة عين أو أقل من ذلك لانهار وانتهي.
ومن مخلوقات عالم الغيب أخبرنا القرآن الكريم عن الملائكة والجن, ومن مخلوقات عالم الشهادة أعلمنا بكل من الانسان والحيوان والنبات(من الأحياء), وبمختلف صور المادة والطاقة(من الجمادات), ومن الأماكن والأزمنة وهي من أبعاد الوجود المادي.

وعملية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون, خلق الحياة, وخلق الانسان عملية غيبية, لم يشهدها الانسان ولذلك يقول الحق(تبارك وتعالي) في محكم كتابه: ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا*
(الكهف:51)
وعلي الرغم من ذلك يقول ربنا(عز من قائل):

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله علي كل شيء قدير*(العنكبوت:20)
وبالجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا أنه علي الرغم من أن الانسان لم يشهد عملية الخلق لأنها سابقة لوجوده, إلا أن الله(تعالي) قد ترك لنا في صخور الأرض, وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الانسان المؤمن بالله علي الوصول إلي تصور صحيح عن كيفية الخلق.

أما غير المؤمن فيري الشواهد الحسية ويلمسها بيديه ولكنه في محاولة نسبة الخلق إلي غير الله فإنه يتوه في سيل من الفروض والنظريات التي تحيد به عن الحق, ولا توصله إلي شيء.
ولذلك جاء التأكيد في هذه الآية الكريمة:
الله خالق كل شيء وهو علي كل شيء وكيل
[الزمر:62]

وفي العديد غيرها من الآيات القرآنية علي حقيقة الخلق حتي لايتوه المؤمنون في متاهات الضالين من الكفار والمشركين الذين ضلوا وأضلوا البشرية حتي في زمن العلوم والتقنية الذي نعيشه.
من هنا جاء الفعل خلق بمشتقاته المختلفة252 مرة في القرآن الكريم, مؤكدا أن الله(تعالي) هو خالق كل شيء.

متاهة الكافرين في قضيتي قدم الكون وتدرج عمارة الأرض بالحياة

في محاولة لنفي الخلق وإنكار الخالق ادعي الكافرون منذ القدم بأزلية العالم, وجاءت الكشوف العلمية المثبتة لقدم الكون, وقدم الحياة علي الأرض فتصور الملحدون في ذلك دعما لدعواهم.
كذلك جاءت عملية اكتشاف التدرج في الخلق ابتداء من خلق اللبنات الأولية

للمادة, إلي خلق كل من الجمادات والنباتات والحيوانات حتي توجت الحياة بخلق الانسان ـ ذلك المخلوق المكرم كما وصفه الحق(تبارك وتعالي), جاءت تلك الكشوف فتخيل فيها الكافرون دعما لدعواهم الباطلة بعشوائية الخلق مما لايقوم عليه دليل واحد.
فربنا(سبحانه وتعالي) خلق الخلق كله علي مراحل متطاولة ـ وهو القادر علي أن يقول للشيء كن فيكون ـ وذلك لسببين واضحين:

أولهما:
أن الله(تعالي) قد أراد بذلك أن يتيح للانسان المتدبر في الكون الفرصة الكافية لفهم سنن الله الحاكمة للوجود كله حتي يتمكن من حسن توظيفها في عمارة الأرض, كما يتمكن من أن يري من خلالها شيئا من قدرة الخالق العظيم, وعلمه, وحكمته, فيسجد له بالعبادة والطاعة, ويري الوحدة في بناء الكون وهي الناطقة بوحدانية الخالق العظيم, كما يري الزوجية في جميع المخلوقين من اللبنات الأولية للمادة إلي الانسان شاهدة لله الخالق بكمال الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه, تلك الوحدانية التي لاينازعه فيها منازع, ولا يشاركه شريك, فالجميع إبداع خلقه, وتمام صنعته فكيف يجرؤ أحدهم علي أن يتطاول إلي مقام الألوهية؟
... وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم*
(المائدة:73]

ثانيهما:
أن الزمن إذا كان حدا من حدود الانسان, ومن حدود غيره من المخلوقات, فهو من خلق الله, والمخلوق لايحد الخالق أبدا, فمهما يتطاول الزمن فهو بين اصبعين من أصابع الله(تعالي) يتحكم فيه كيف يشاء.
وبدلا من فهم القضية في هذا الإطار اندفع دعاة المادية إلي الافتراض الخاطئ بنفي الخلق, وانكار الخالق(سبحانه وتعالي) بدعوي أزلية الخلق, أو عشوائيته, وهما افتراضان يتعارضان مع جميع الملاحظات العلمية الدقيقة في صخور الأرض, وفي صفحة السماء, ومن هنا جاءت الآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها, كما جاء غيرها من مئات الآيات شاهدة بأن الله(تعالي) هو خالق كل شيء, مما يتنافي مع الادعاء بأزلية الوجود أو العشوائية في الخلق.

قدم الكون وانتفاء أزليته وأبديته يؤكدان حقيقة الخلق
تؤكد الملاحظات العلمية في الجزء المدرك من الكون أن الحرارة تنتقل فيه باستمرار من الأجسام الحارة إلي الأجسام الباردة, ولو كان الكون أزليا كما يدعي المبطلون لتساوت حرارة جميع الأجسام فيه وانتهي وجوده منذ زمن بعيد, واستمرار الكون في التواجد مع استمرار الانتقال الحراري ينفي أزليته, كما ينفي أبديته, ويؤكد أنه مخلوق, مستحدث, له في الأصل بداية يقدرها العلماء اليوم بأكثر من عشرة بلايين من السنين(إلي حوالي أربعة عشر بليونا من السنين) ولابد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية لايعلمها إلا الله الخالق(سبحانه وتعالي) وإن كانت السنن الحاكمة للكون اليوم تشير إلي حتمية وقوعها, ولا تحدد موعدها, ومن ذلك أن الشمس تفقد من كتلتها في كل ثانية علي هيئة طاقة مايعادل4.6 مليون طن, وكما تفقد الشمس من كتلتها تفقد بقية النجوم, فكوننا حتما إلي زوال في لحظة يحددها الخالق(جلت قدرته) الذي أنزل لنا في محكم كتابه قوله الحق:
يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لايجليها لوقتها إلا

**هو ثقلت في السماوات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة...*
(الأعراف:187)**

الانفجار العظيم يؤكد حقيقة الخلق

**من الحقائق التي وصل إليها علماء الفلك منذ بدايات القرن العشرين حقيقة توسع الكون وقد سبق القرآن الكريم بالاشارة إليها وذلك بقول الحق تبارك وتعالي
والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون
(الذاريات:47)**

**وقال علماء الفلك إننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلي الوراء مع الزمن فلابد من التقاء كل مادة الكون وطاقته مع المكان والزمان في جرم واحد يتضاءل في الحجم إلي حد العدم, ويتعاظم في كم المادة والطاقة إلي حد لايكاد العقل البشري أن يتصوره. وأن هذا الجرم الابتدائي انفجر فتحول إلي سحابة من الدخان خلقت منها الأرض والسماوات, وقد سميت هذه النظرية باسم نظرية الانفجار العظيم, ومن شواهدها تمدد الكون, ومن شواهدها أيضا وجود درجة حرارة ثابتة(حوالي3 درجات مطلقة) علي جميع أطراف الجزء المدرك من الكون, ومن شواهدها كذلك تصوير بقايا الدخان الكوني الأولي علي أطراف الجزء المدرك من الكون.
وعلي الرغم من معارضة عدد غير قليل من المتخصصين في مجال الفلك والفيزياء الفلكية لنظرية الانفجار العظيم فإننا نحن معشر المسلمين نقبل هذه النظرية, ونرتقي بها إلي مقام الحقيقة لوجود إشارة لها في كتاب الله من قبل أربعة عشر قرنا يقول فيها ربنا(تبارك وتعالي):
أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون*(الأنبياء:30).**

**وخلق الكون بعملية انفجار كبري من أعظم الدلائل علي الخلق والتدبير, لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدي إلي بعثرة المادة وتناثرها, مخلفا وراءه الدمار, أما عملية الانفجار الكوني فقد أدت إلي إبداع نظام له تصميم دقيق, محكم الكتل, والأحجام, والأبعاد, والمدارات, والسرعات, والعلاقات, وهذا النظام مبني علي نسق واحد من أدق دقائقه إلي أعظم وحداته علي الرغم من تعاظم أجرامه وأبعاده ووحداته وتجمعاته, وتعقد علاقاته.
وانفجار هذه نتيجته لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير وتقدير بالغي الإحكام والإتقان والإحاطة والقدرة لا يستطيعهما إلا الخلاق الحكيم العليم.**

وجود المادة وأضدادها يؤكد علي حقيقتي الخلق والتدبير

**منذ الربع الأول للقرن العشرين, وكل من الحسابات الرياضية والاكتشافات في صفحة السماء يؤكد حقيقة الزوجية في الخلق فالضوء يتحرك أحيانا علي شكل موجات وأحيانا أخري علي شكل جسيمات(فوتونات), وهذه الزوجية في الخلق تتحقق أيضا للمادة, فالجزء من المادة ليس نقطة هندسية ولكنه كيان ينتشر أيضا في الفضاء علي هيئة موجية.
وقد أدت هذه الملاحظة إلي اكتشاف نقيض للإليكترون(أو قرينه), وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإن أحدهما يلغي الآخر أي يفنيه وينهي وجوده إلي العدم.
ومعني ذلك أن أية كمية محدودة من الطاقة يمكن أن تتجسد في جسيمين, أحدهما نقيض لصاحبه في كل صفاته, بمعني أنه صورة طبق الأصل له ولكنه**

معكوس الصفات, وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإنهما يفنيان معا. والغريب في الأمر أن يكتشف في صفحة السماء المادة وأضدادها علي مختلف المستويات من اللبنات الأولية للمادة إلي المادة ذاتها:

Quarks and Antiquarks
Neutrinos and Antineutrinos
Electrons (Negatrons) and Positrons
Protons and Antiprotons
Neutrons and Antineutrons
Matter and Antimatter

ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الكون قد بدأ بتركيز من المادة وأضدادها أي بدأ من العدم. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: من الذي فصل تلك الأضداد حتي يخلق الكون ؟ ولا يمكن لعاقل أن يتصور ذلك بغير تقدير الخلاق العليم.
وحتي بعد فصل الأضداد لكي يخلق الكون, يري العلماء حتمية إفناء بعض تلك الأضداد للبعض الآخر, والسؤال الذي يفرض نفسه هو: ماهو الفاصل بين المادة وأضدادها في صفحة السماء الآن حتي يوجد الكون ؟ ومن الذي وضعه؟ ولايزال يحفظه؟
والجواب الذي لا مفر منه هو: وضعه الخالق العظيم الذي يقول للشيء كن فيكون. وعلي ذلك فإن مراحل خلق الكون منذ لحظة الانفجار العظيم قد خططت لها العناية الإلهية بدقة فائقة في ضبط درجات الحرارة ومعدلات تخلق الجسيمات الأولية للمادة, وسرعات الاتساع الكوني وغير ذلك من أمور حتي وصل الكون إلي حالته الراهنة, ولا يمكن لكل ذلك أن يتم بغير خلق وتدبير من الله الخبير العليم.

خلق العناصر في داخل النجوم وفي صفحة السماء من أدلة الخلق والتدبير

في دراسة للتركيب الكيميائي للجزء المدرك من الكون اتضح أن غالبيته غاز الإيدروجين الذي يشكل أكثر من74% من مادة الكون المنظور, والإيدروجين هو أخف العناصر وأقلها بناء.
ويلي غاز الإيدروجين كثرة في مادة الكون المنظور غاز الهيليوم الذي يكون 24% من مادة الكون المنظور(وهو العنصر الثاني في الجدول الدوري للعناصر). وقد دفعت هذه الملاحظة إلي الاستنتاج الصحيح أن جميع العناصر المعروفة(وهي أكثر من105 عناصر) قد خلقت كلها من غاز الإيدروجين.
وبدراسة أقرب النجوم إلينا وهي الشمس اتضح أن وقودها هو غاز الإيدروجين الذي تتحد أربع من نوياته(جمع مصغر نواة) لتكون نواة عنصر الهيليوم وتنطلق الطاقة بعملية تسمي عملية الاندماج النووي, وعلي ذلك فالنجوم عبارة عن أفران ذرية كونية تتخلق بداخها العناصر من نوي ذرات الإيدروجين حتي الحديد الذي لا تصله عملية الاندماج النووي إلا في آخرمراحل حياة النجوم العملاقة في لحظات انفجارها المعروفة باسم المستعرات العظمي, وبانفجار النجم تتناثر مكوناته من الحديد في صفحة السماء لتدخل في مجال جاذبية أجرام تحتاج الحديد, أو لتصطاد بعض اللبنات الأولية للمادة مكونة العناصر الأعلي في وزنها الذري. وهذه العملية وحدها كافية للتأكيد علي حقيقة الخلق.

بناء الخلية الحية ينطق بحتمية الخلق والتدبير

*** إذا علمنا أن عدد الأنواع الحية المعروفة لنا حتي الآن يتعدي المليون ونصف المليون نوع, وأن عدد الأنواع المندثرة والموجود لها بقايا علي هيئة أحافير في صخور الأرض يتعدي الربع مليون نوع, وأن عدد الأنواع المتوقعة للحياة الأرضية في ضوء الاكتشافات المعاصرة يصل إلي حوالي الخمسة ملايين نوع.**
*** وأن متوسط المدي الزمني للنوع الواحد من أنواع الحياة يتراوح بين نصف مليون سنة إلي خمسة ملايين من السنين, وقد يصل إلي عشرة ملايين من السنين, يمثل النوع خلالها ببلايين الأفراد.**

*** وأن جسم الإنسان علي سبيل المثال يتكون من ملايين ملايين الأنواع المختلفة من الخلايا.**
*** وأن الخلية الحية الواحدة علي قدر من التعقيد في البناء ـ علي الرغم من ضآلة حجمها ـ يفوق كل ماحققه الإنسان من إنجازات تقنية فضلا عن كل الذي فكر في تحقيقه ولم يتمكن من ذلك بعد.**

فالخلية الحية تتكون عادة من جدار حي(في كل من الإنسان والحيوان) مليء بالسائل الخلوي الهيولي(السيتوبلازم), وبوسط هذا السائل توجد النواة, والسائل الخلوي معقد التركيب, وغير متجانس, ويتكون بشكل رئيسي من البروتينات والدهون, والسكريات وبعض العناصر المختلفة, وهذا السائل توجد به أعداد من الجسيمات المتخصصة(العضيات) ويعمل كوسيط تمر من خلاله المواد والمركبات والأوامر من النواة إلي أي من هذه العضيات, ومن أي منها إلي عضي آخر, أو إلي خارج الخلية.
ويفصل النواة عن السيتوبلازم غشاءان, والنواة تختزن معظم مادة الشفرة الوراثية للخلية الحية. أما الشبكة الاندوبلازمية فتربط بين الغشاء النووي والغشاء الخلوي, وهي شبكة معقدة تتصل بها حبيبات صغيرة تدعي الريبوسومات تقوم بتصنيع أكثر من مائتي ألف نوع من البروتينات التي تحتاجها الخلية الحية, حسب التعليمات التي تتلقاها من نواة الخلية, ومن العضيات مايحمل الإنزيمات وهي مواد بروتينية تصنعها الريبوسومات وتساعد علي هضم المواد الغذائية داخل الخلية, ومن العضيات مايقوم بتحويل المواد العضوية الي طاقة تحتاجها الخلية الحية في عدد من نشاطاتها المحددة.

وتختلف الخلية النباتية في أن جدارها مكون من مواد غير حية, وأنها تحتوي علي البلاستيدات الخضراء(اليخضور) وهي مادة لازمة لإتمام عملية التمثيل الضوئي.
والشفرة الوراثية تحملها جسيمات دقيقة في داخل نواة الخلية تعرف باسم الصبغيات وعددها محدد لكل نوع من أنواع الحياة, والصبغيات تحمل المورثات(الجينات) التي تحمل صفات الفرد من هذا النوع, والتي تعطي الأوامر للخلية بالانقسام, والتمييز وتخليق الأنواع المختلفة من البروتينات, وعلي ذلك فالنواة هي مركز المعلومات للخلية.

وتحاط النواة بغشاء يسمي الغلاف النووي, وتحتوي علي مادة حبيبية دقيقة تسمي البلازما النووية التي تحمل كلا من الصبغيات والنوية, وقد تكون النوية واحدة أو أكثر.
وإذا علمنا أن الخلية الحية قد أعطاها الخالق(سبحانه وتعالي) القدرة علي انتاج مائتي ألف نوع من البروتينيات التي يوجد منها أكثر من مليون نوع, وأن

الجزيء البروتيني يتكون من سلاسل من جزيئات الأحماض الأمينية, وأن الأحماض الأمينية المعروفة والقادرة علي بناء الجزيئات البروتينية هي عشرين حمضا أمينيا. وأن هذه الأحماض مواد جامدة غير حية بذاتها. متبلورة سهلة الذوبان في الماء في أغلب الأحوال.

وأن الحمض الأميني يتكون من ستة عناصر أساسية هي الكربون, الإيدروجين, والأوكسجين, النيتروجين, الكبريت, والفوسفور. وأن مجرد اختيار هذه العناصر الستة من بين أكثر من105 عناصر معروفة لنا اليوم بالصدفة هو إحصائيا أمرا مستحيل.
وأن الأحماض الأمينية المناسبة لبناء الجزيء البروتيني لابد أن تكون من نوع خاص(ألفا), وأن تكون الذرات مرتبة فيها حول ذرة الكربون ترتيبا يساريا, وأن تترتب هي في الجزيء البروتيني ترتيبا يساريا كذلك, وأن ترتبط برباط خاص يعرف باسم الرباط الببتيدي(PeptideBond), وأن هذه القيود تجعل من تكوين جزيء بروتيني واحد بمحض الصدفة أمرا مستحيلا.

وإذا علمنا أن أبسط جزيء بروتيني يتكون من خمسين جزيئا من جزيئات الأحماض الأمينية العشرين المعروفة بكل هذه القيود السابقة, وأن بعضها مكون من آلاف الجزيئات للأحماض الأمينية المرتبة ترتيبا محددا, اتضح لنا بجلاء أن مجرد تكون جزيء بروتيني واحد بمحض الصدفة هو إحصائيا من مستحيل المستحيلات, ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة بهذا القرار الإلهي من قبل ألف وأربعمائة سنة لتريح هذه النفوس القلقة والعقول المضطربة بين العديد من النظريات التي طرحت كبدائل للخلق وانتهت كلها بالفشل الذريع. فسبحان القائل: الله خالق كل شيء وهو علي كل شيء وكيل* وهو سبق علمي لكل المعارف البشرية, وصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد الذي تلقي القرآن عن ربه فبلغ الرسالة, وأدي الأمانة, ونصح الأمة, وجاهد في سبيل الله حتي أتاه اليقين, فجزاه الله عنا خير الجزاء والحمد لله أولا وآخرا.